# الإمامة في رؤية الأئمة الأطهار

## الاصطفاء الإلهي للمعصوم

العلامة الشهيد الشيخ مرتضى مطهري

**موضوع هذا المقال هو آخر جزء من مجموعة بحوث ألقاها العلامة الشهيد مرتضى مطهري رحمه الله، حول المسائل العامّة للإمامة. وهو موضوع يتسم بالطابع النقلي، من قبيل ما ورد من حديث عن النبيّ الأكرم في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، أو ما صدر عن رسول الله أو أمير المؤمنين حول الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.**

**وسنلاحظ في هذه المحاضرة أن الشهيد مطهري قد بيَّن العناصر الحيّة التي ترتبط بروح الإمامة - حيث اعتمد في ذلك على أحاديث الأئمة عليهم السلام، من خلال قراءة بعض ما ورد عن هذه العناصر في كتاب الحجّة من (الكافي).**

**«شعائر»**

الإمامة في معناها المقصود هي تالي تلّو النبوة، ولكن لا بالنحو الذي تعني فيه أنها أدنى مرتبة من أي نبوّة كانت، بل المقصود أنّها أمر شبيه بنبوّة الأنبياء العظام، وهم حازوا على الإمامة أيضاً، وجمعوا بين النبوّة والإمامة. إنّ الإمامة حالة معنوية. وعند العودة إلى أحاديث الأئمّة في هذا المجال نجد أنّها ترتكز على مسألة الإنسان بشكل عام. ومن هنا ينبغي أن نحدد رؤيتنا حول الإنسان، لكي تتضح هذه الفكرة.

تعرفون أنّ النظرة إلى الإنسان في منطلق الإجابة عن هذا السؤال: الإنسان.. أي موجود هو؟ تفترق إلى رؤيتين، تصدر الأولى عن تصوّر ينظر إلى الإنسان - كسواه من بقية الحيوانات الأخرى- موجوداً أرضيّاً بالكامل.

إنّ ما يرمي إليه هذا التصور هو اعتبار الإنسان كائناً مادياً -ليس إلاّ- مع فارق أن هذا الموجود المادي بلغ في مسار التحولات المادية أعلى صيغة من التكامل يمكن أن تبلغها المادة.

فالحياة وفق هذا التصوّر، سواء في النباتات، أو في الحيوانات التي تعبّر عن رتبة أعلى من التي سبقتها، أو في الإنسان حيث تبلغ أرفع مراتبها، ما هي سوى تجلٍّ للتكامل الذي صارت إليه المادة تدريجياً عبر مسار تحولاتها. النتيجة التي يفضي إليها هذا التصور، أنه ليس هناك عنصر آخر غير العناصر المادية يدخل في النسيج الوجودي لهذا الكائن.

والحقيقة أنّنا نعبر عن الجزء الآخر بالعنصر، لأنّنا لا نملك غير هذه الصيغة في التعبير عنه. كما أنّ أي مظهر خلّاق وعجيب ينطوي عليه هذا الموجود (كالنشاط الروحي والفعاليات المعنوية والقوى المبدعة مثلاً) إنّما يصدر عن هذا النسيج المادي وحده.

جرياً وراء هذا المنطق ينبغي أن يكون الإنسان الأول في خط الخليقة، هو أدنى أنواع هذا الكائن، ثمّ غدا أكثر تكاملاً كلما امتد به الشوط وتقدّم إلى الأمام. ولا فرق في هذا المعنى بين أن نأخذ بنظر الاعتبار تصوّر القدماء للإنسان الأول،

الذي يقول بخلق الإنسان من الأرض مباشرة وبين التصوّر المعاصر الذي يذهب إليه بعض السادة، ويصاغ فرضية تستحقّ التأمل في حد ذاتها، فحواها أنّ الإنسان الأول كائن منتخب من موجودات أدنى منه رتبة، ومتحوّل عن طبقة (سلالة) أوطأ، بحيث ينتهي أصله إلى الأرض، لا أنه منبثق من الأرض مباشرة، كما يذهب لذلك أنصار الاتجاه الأول.

## الإنسان الأوّل في القرآن

عندما نعود إلى المعتقدات الإسلامية والقرآنية، نجد أنّ نظرتنا للإنسان الأول تصدر من رؤية تضعه في مكان يكون فيه أكثر تكاملاً من كثير ممّن بعده، بل هو أكثر تكاملاً حتى من الإنسان المعاصر. ففي اللحظة التي وطئ فيها ذاك الإنسان عالم الوجود، كان يحمل معه عنوان خلافة الله. وبتعبير آخر: جاء ذلك الإنسان في مرتبة النبوّة.

وفي ضوء المنطق الديني، تستحق هذه النقطة التأمل، لماذا جاء الإنسان الأول على الأرض نبيّاً وحجّة لله، في حين أن هذا المسار يخضع لقناعة ترى أنّ النبوّة تنبثق كثمرة للخط العادي في مسير التكامل، لذا يجب أن يوجد الكيان الإنساني بادئ الأمر، ثم يقطع شوطه نحو الرقي والكمال بعد مراحل يطويها، وبعدئذ يُصار إلى انتخاب أحد أفراده للنبوة والرسالة.

وموضع التأمّل هو هذا التفارق بين التصوّر الآنف لانبثاق النبوّة والنبيّ، وما عليه المعتقد الإسلامي - القرآني من أن الإنسان الأول جاء إلى الوجود وهو حجّة ونبيّ.

القرآن الكريم يضع الإنسان الأول ذاك في مقام شامخ جداً، وهو يقول فيه:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ البقرة:٣٠-٣١.

لقد ورد بشأن الإنسان الأول تعبير: ﴿..وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ..﴾ الحجر:٢٩، وهو يشعر بدخالة عنصر علوي في التركيب الوجودي لهذا الكائن، غير العناصر المادية. أي أنّ بنية هذا الموجود تختص بشيء من عند الله، بالإضافة إلى ما ينطوي عليه من موقع الخلافة المشار إليه في قوله تعالى: ﴿..إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾.

وبهذا تنطوي الرؤية القرآنية على معطىً عظيم إزاء الإنسان، بحيث حمل الإنسان الأول، الذي وطئت قدماه هذا العالم، عنوان حجّة الله، ونبي الله، والموجود الذي له صلة بعالم الغيب وارتباط مع السماء.

والكلام الصادر عن أئمتنا -حول الإمامة- يرتكز إلى هذا المبدأ في أصالة الإنسان، وذلك في المعنى الذي يدلّ على أنّ الإنسان الأول في خط الخليقة حمل المواصفات المشار إليها آنفاً، وسيأتي الإنسان الأخير على الخط، متحلّياً بالخصائص ذاتها. وبين الإنسان الأخير لن يخلو العالم الإنساني أبداً من كائن بشري من هذا الطراز، يحمل روح ﴿..إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾.

هذا في الأساس، هو المحور في قضية الإمامة.

يتفرّع على الأصل الآنف أن يكون سائر أفراد النوع الإنساني وكأنهم في وجودهم فرع لوجود ذلك الإنسان، بحيث إن لم يوجد مثل ذلك الإنسان، فلن يكون متاحاً -أبداً- وجود بقيّة أفراد النوع البشري.

# النبيّ صلّى الله عليه وآله يباهل أهل نجران
## ..فإن غدا بولده وأهله فاحذَروا مباهلته

الشيخ جعفر السبحاني

**«تعتبر واقعة المباهلة وما نزلَ فيها من القرآن أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة على مرّ التاريخ. لأنّ ألفاظ الآية النازلة في المباهلة ومفرداتها تكشف عن مكانة ومقام مَن باهل بهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، والذين يتّخذهم الشيعة قادةً لهم».**

**مقالة مختارة من كتاب (سيّد المرسَلين) للشيخ جعفر السبحاني اختارتها «شعائر» لعدد شهر ذي الحجّة الحرام، تلقي الضوء على الأحداث فريدة، والدلالات الباهرة التي اشتمل عليها يوم المباهلة.**

تقع «نجران» بِقُراها السبعين التابعة لها، في نقطة من نقاط الحجاز واليمن الحدودية، وكانت هذه المنطقة في مطلع ظهور الإسلام المنطقة الوحيدة التي غادر أهلُها الوثنية لأسباب معينّة واعتنقوا المسيحية، من بين مناطق الحجاز.

وقد كتب رسولُ الإسلام كتاباً إلى أسقف نجران «أبو حارثة» يدعو أهلها فيه إلى الإسلام، يوم كتب كتباً إلى ملوك العالم ورؤسائه.

وهذا مضمون هذا الكتاب:

**«بِسم إله إبراهيم وإسحاق ويَعقوب من مُحَمّد رسول الله إلى أسقُف نَجران وأهل نَجران إن أسلَمتُم فإنّي أحمَدُ إليكُم الله إله إبراهيم وَإسحاق ويعقوب، أمّا بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعُوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإنْ أبيتُم فالجزية، فإن أبيتُم فقد آذنتكم بحربٍ، والسلام».**

قدم سفير رسول الله صلّى الله عليه وآله نجران، وسلّم كتابه المبارك إلى أسقف نجران، فقرأ ذلك الكتاب بعناية ودقّة متناهية، ثمّ شكّل جماعة للمشاورة وتداول الأمر واتّخاذ القرار، مكوَّنةً من الشخصيات البارزة الدينية وغير الدينية، وكان أحدُ أعضاء هذه المجموعة «شرحبيل»، الذي عُرف بعقله ونُبله، وتدبيره وحكمته، فقال في معرض الإجابة على استشارة الأسقف إيّاه: قد علمتَ ما وعَد الله إبراهيم في ذرّية إسماعيل من النبوّة، فما يؤمِنُك أن يكون هذا الرجلُ؟ ليس لي في النبوّة رأي، لو كان أمر من أمور الدنيا أشرتُ عليك فيه وجَهدتُ لك.

فقرّر المتشاورون أن يبعثوا وفداً إلى المدينة للتباحث مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، ودراسة دلائل نبوّته، فاختير لهذه المهمّة ستّون شخصاً من أعلم أهل نجران وأعقلهم، وكان على رأسهم ثلاثة أشخاص من أساقفتهم هم:

١-«أبو حارثة بن علقمة» أسقف نجران الأعظم والممثل الرسمي للكنائس الروميّة في الحجاز.

٢-«عبد المسيح» رئيس وفد نجران المعروف بعقله ودهائه، وتدبيره.

٣-«الأيهم» وكان من ذوي السن ومن الشخصيات المحترمة عند أهل نجران.

قدمَ هذا الوفد المسيحيُّ المدينة، ودخلُوا المسجد على رسول الله صلّى الله عليه وآله «..» فسلّموا عليه فرد عليهم السَّلام، واحترمهم، وقبلَ بعض هداياهم التي أهدوها إليه، صلّى الله عليه وآله، ثمّ إنّ الوفد قبل أن يبدأوا مفاوضاتهم مع

* من كتابه (سيّد المرسلين: ١/ ٦٠٢-٦٠٩ مختصر)

النبيّ صلّى الله عليه وآله، قالوا إن وقت صلاتهم قد حان واستأذنوه في أدائها، فأراد الناسُ منعهم، ولكنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أذن لهم، وقال للمسلمين: دعوهم. فاستقبلوا المشرق، فصلّوا صلاتهم.

وبذلك أعطى النبيّ صلّى الله عليه وآله درساً في التسامح الديني، يدفع افتراء أعداء الإسلام على هذا الدين.

## مفاوضاتُ وَفد نجران مع النبيّ صلّى الله عليه وآله

عرض رسول الله صلّى الله عليه وآله الإسلام على وفد نجران وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا وقالوا: قد كنّا مُسلمين قبلك.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **كَذِبتُم، يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحمَ الخنزير، وزعمُكُم أنّ لله ولداً.**

فقالوا: المسيح هو الله لأنّه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلّها، وخلَق من الطين طيراً.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **هو عبد الله وكلِمته ألقاها إلى مريم.**

فقال أحدُهم: المسيح ابن الله لأنّه لا أبَ له.

فسكتَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عنهم، فنزل الوحيُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ..﴾ آل عمران:٥٩.

فقال وفد نجران: إنّا لا نزدادُ منكَ في أمر صاحبنا إلّا تبايُناً، وهذا الأمر الذي لا نقرّه لك، فهلمَّ فلنلاعنك أيّنا أولى بالحقّ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

فأنزلَ الله عزّ وجلّ آية المباهلة على رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ آل عمران:٦١.

فدعاهُم إلى المباهلة، فقبلوا، واتّفق الطرفان على أن يقوما بالمباهلة في اليوم اللاحق.

## خروجُ النبيّ للمباهلة

تُعتبر قصة مباهلة رسول الله صلّى الله عليه وآله مع وفد نجران من حوادث التاريخ الإسلاميّ المثيرة والجميلة، وهي وإن قصّر بعض المفسّرين والمؤرّخين في رواية تفاصيلها، وتحليلها، إلّا أنَّ ثلة كبيرة، مِن العلماء كالزمخشري في (الكشّاف)، والإمام الفخر الرازي في (تفسيره)، وابن الأثير في (الكامل)، أعطوا حقّ الكلام في هذا المجال، وها نحن ننقل هنا نصَّ ما كتبَه الزمخشريُ في هذا المجال:

«حان وقت المباهلة... وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله، ووفد نجران قد اتّفقا على أن

**كان زعماء وفد نجران ورؤساؤهم قد قال بعضهم لبعض - قبل أن يغدو رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى المباهلة: اُنظروا محمَّداً في غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذَروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنّه ليس على شيء**

يُجريا المباهلة خارج المدينة، في الصحراء... فاختار رسول الله صلّى الله عليه وآله من المسلمين ومن عشيرته وأهله أربعة أشخاص فقط، وقد اشترك هؤلاء في هذه المباهلة دون غيرهم، وهؤلاء الأربعة لم يكونوا سوى عليّ بن أبي طالب عليه السَّلام، وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله، والحسن والحسين عليهما السلام، لأنّه لم يكن بين المسلمين من هُوَ أطهر من هؤلاء نفوساً، ولا أقوى وأعمق إيماناً.

طوى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله المسافة بين منزله، وبين المنطقة التي تقرّر التباهلُ فيها في هيئة خاصة مثيرة، فقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفَه وعليٌّ خلفَها، وهو يقول: (**إذا دعوتُ فأمّنوا**).

كان زعماء وفد نجران ورؤساؤهم قد قال بعضهم لبعض - قبل أن يغدو رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى المباهلة: أُنظروا محمَّداً في غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذَروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنّه ليس على شيء. وهم يقصدون أنّ النبيّ إذا جاء إلى ساحة المباهلة محفوفاً بأبهّة مادية، وقوّة ظاهرية، تحفُّ به قادة جيشه وجنوده فذلك دليل على عدم صدقه، وإذا أتى بوُلده وأبنائه بعيداً عن أيّة مظاهر مادية، وتوجّه إلى الله بهم، وتضرّع إلى جنابه كما يفعل الأنبياء، دلّ ذلك على صدقه لأنّ ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزّته، وأفلاذ كبده، وأحبَّ الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه.

وفيما كان رجال الوفد يتحادثون في هذه الأمور، إذ طلع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله والأغصانُ الأربعة من شجرته المباركة، بوجوهٍ روحانية نيّرة، فأخذ ينظر بعضُهم إلى بعض بتعجّبٍ ودهشة، كيف خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله بابنته الوحيدة، وأفلاذ كبده وكبدها المعصومين للمباهلة، فأدركوا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله، واثق من نفسه ودعوته وثوقاً عميقاً، إذ إنّ المتردّد غير الواثق بدعوته لا يخاطر بأحبائه وأعزّته، ويعرّضهم للبلاء السماوي.

ولهذا قال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وُجُوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة.

## انصراف وَفد نجران عن المباهلة

لمّا رأى وفد نجران هذا الأمر (وهو خروج النبيّ بأحبَّته وأعزّته)، وسمعوا ما قاله أسقفُ نجران، تشاوروا فيما بينهم ثمّ اتفقوا على عدم مباهلة النبيّ صلّى الله عليه وآله، معلنين عن استعدادهم لدفع الجزية للنبيّ كلّ سنة، لتقوم الحكومة الإسلامية في المقابل بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم، فقبل النبيّ صلّى الله عليه وآله بذلك، وتقرَّر أن يتمتّع نصارى نجران بسلسلة من الحقوق في ظلّ الحكومة الإسلامية، لقاء مبالغ ضئيلة يدفعونها سنوياً، ثمّ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: (**أما والَّذي نفسي بيده، لقد تَدلّى العذابُ على أهل نجران، ولو لاعَنُوني لَمُسِخُوا قردة وخنازير، ولأُضرم الواديُ عليهم ناراً، ولاستأصل اللهُ تعالى نجران وأهله**)».

ثمّ يقول الزمخشري في نهاية هذا الكلام: «وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السَّلام، وفيه برهان على صحّة نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وآله، لأنّه لم يروِ أحدٌ من موافق ولا مخالف أنّهم أجابوا إلى ذلك».

## أكبر فضيلة

تعتبر واقعة المباهلة وما نزلَ فيها من القرآن أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة على مرّ التاريخ. لأنّ ألفاظ الآية النازلة في المباهلة ومفرداتها تكشف عن مكانة ومقام مَن باهل بهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، والذين يتّخذهم الشيعة قادةً لهم.